الفصل الثانى عشر

تربية الفرد والمجتمع

لقد زرت دول الخليج ونزلت بكثير من فنادقها الكبرى ، ووجدت تواصياً غريباً بإهمال اللُّغة العربية وازدراء النطق بها ... !!

لغة التخاطب الفريدة هى الإنجليزية . الهندى الذى استعمر الإنجليز وطنه وعقله لا يعرف غيرها . وهو لا يُخاطِب العرب الذين يعمل بفنادقهم إلا بها .. إذا ذهب عربى إلى لندن وجب عليه طوعاً أو كرهاً أن يتحدث بالإنجليزية .

أما العرب فى بلادهم وفى جزيرتهم - وطن العروبة الأول - فعليهم أن ينتقلوا إلى اللُّغة الإنجليزية كى يقضوا في الفنادق بضع ليال !!

ومع ذلك فنحن - لإتقاننا في التزوير - نُسمِّى دول المنطقة دول الخليج العربى (!) مع أن العروبة هناك لها منزلة هون . أغنى اللُّغة والدين والتقاليد .. ومنزلة الفرنسية فى المغرب « العربى » كمنزلة الإنجليزية في الخليج العربي .. مسكينة لغة القرآن .. ! حتي إذاعة جمهورية مصر العربية تنطق بالعامية الهابطة أكثر مما تنطق بالعربية الفُصحى ..

ولا أدرى لماذا تُعامَل اللُّغة العربية وحدها بهذه الخطة المنكورة المحقورة .. ولماذا لا يتوارى الرؤساء الذين لا يُحسنون النُطق بالعربية بدل أن يُثيروا اشمئزازنا بهذه البغام العامى الردىء ؟؟

كنت أرتقب من دول الجامعة العربية أن تتخذ قراراً إجماعياً بتعليق قبول الصومال عضواً بها على احترام اللُّغة العربية . ولكن الجرأة الشنيوعية من جانب والجبن القومى من جانب آخر ، جعل الأمور تنجرف إلي مجرى سوف تضيع فيه العروبة والإسلام معاً إن لم يصح المخلصون إلي هذا المصير المفزع فيعودوا إلي العروبة حتماً ، وإلي احترام الإسلام الذى تدين به الكثرة الساحقة من العرب التائهين ..

حدّد القرآن الكريم عمل النبي ﷺ بين الناس في ثلاثة عناصر متماسكة هي : تلاوة الآيات ، والتزكية ، والتعليم .. قال تعالي : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

العنصر الأول : تلاوة آيات الله ، ذلك أن الوحى الأعلى هو دعامة البناء النفسى والاجتماعى ، هناك مجتمعات ترفض الوحى لأنها ملحدة ، وأخرى تقوم على وحي مزوّر ومشوب بالآباطيل ، أما الأمة التي يبنيها الإسلام فأساسها الفذ آيات الوحي الحق ، كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

العنصر الثاني : التزكية ، وهي أقرب الكلمات وأدلها علي معني التربية ، بل تكاد التزكية والتربية تترادفان في إصلاح النفس وتهذيب الطباع وشد الإنسان إلي أعلي كلمات حاولت المثبطات والهواجس أن تسِفّ به وتعوّج .

العنصر الثالث : التعليم ، وتعني به الآية تنوير الذهن بما يفتقر إليه من هدايات كثيرة في عالَم الغيب والشهادة ، أي في عالَم المادة وما وراء المادة . والقرآن كتاب تضمن علوماً إنسانية شتّى في العقائد والتشريع والتاريخ والأخلاق ..

وحياة الرسول ﷺ - الذى بلّغه وطبّقه - نموذج راق للثقافة الراشدة والسلوك الحكيم .

والسَلَف الذين حملوا الرسالة علماً وعملاً كانوا أبصر الناس بالحياة ، فلم يعبدوها ولم يزهدوها ، بل عاشوا أصحاب مبادىء واضحة ، حققت علي ظهر الأرض أغلي الحضارات وأشرفها .

وحديثنا الآن عن العنصر الأوسط - أى التربية - وقبل أن نبسط القول نؤكد ما أشرنا إليه من قبل عن تطابق التزكية والتربية ، فقد وردت كلمة التزكية في عدة مواضع من الكتاب العزيز يجب أن نتدبرها . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ١٥١ (٢) طه : ٧٤

ارتكاب الجرائم مظهر للانحراف ، كذلك الجرى مع الهوى ورفض قيود الشرع .

وما علاج ذلك ؟ التزكية ! قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَأْتِه مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُلاَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ (١) .

التزكية هنا تعنى الإيمان والإصلاح وضبط الغرائز ومقاومة الشر ومنع كل أسباب الجريمة ، التزكية من الزكاة - أى الطيبة - وهي للقلب كالذكاء إلى العقل .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك تعالى : ﴿ ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (٢) .

المعروف في الإسلام أن الفطرة الإنسانية خُلقَت سوِّية مستقيمة ، وأنها لو بقيت علي أصل الخلقة ما أشركت ولا أفسدت ، فالعوج الذى يلحقها طارىء لا أصيل .

تُولد العين ابتداءً قادرة علي النظر ، فإذا عميت فمن مرض عارض ، وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : « إني خلقتُ عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

وما معني : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا ﴾ .؟ قال ابن عباس : بَيَّنَ لها الخير والشر ، وقيل : جعل فيها فجورها وتقواها : أى هي قابلة للبقاء علي طبيعتها ، وقابلة للميل مع التيارات التي تهب عليها ، فتديرها علي غير محورها .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ، أى زكّي نفسه بطاعة الله ، وطهّرها من الأخلاق الدنيئة ، والرزائل - هكذا قال قتادة - ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أى أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي - هكذا قال ابن كثير !!

---

(١) طه : ٧٥ - ٧٦

(٢) الشمس : ٧ - ١٠ .

o p e i k a n d i . c o m

وروى أحمد عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللَّهم إني أعوذُ بكَ من العجز والكسل ، والهرم والجبن ، والبخل وعذاب القبر ، اللَّهم آتِ نفسي تَقواها ، وزكِّها أنت خير من زكَّاها ، أنت وليها ومولاها ، اللَّهم إني أعوذُ بكَ من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يُستجاب لها ».

قال زيد : كان رسول الله ﷺ يُعلِّمناهُنَّ ونحن نُعلِّمكهُنَّ ..!!

عندما نتدبر هذا الحديث نجده أحصي آفات نفسية مهلكة للأفراد والجماعات .

فالعجز المقعد للهمم والمطفيء للآمال ، والكسل المورث للخمول المثبِّط عن أداء الواجبات ، والجبن المعجز عن كلمة الحق ومواقف البسالة والصمود ، والبخل الذى يمنع من العطاء ويربط صاحبه بالأثرة والضيق ، والقلب القاسي الذى لا يكترث لآلام الغير ، والنفس المنهومة التى تنطلق وراء أطماعها لا تهدأ أبداً ، والمعرفة التي يجعلها صاحبها سلاحاً لبلوغ المآرب ، وكل ما يهبط بالمرء ، ويبعده عن رحمة الله ، هذه الآفات جميعاً لا بد من البراءة منها حتي تزكو النفس وتطيب !! وهل تتم تربية إلا بالبعد عنها ؟ وهل يعلو مستوى الفرد والمجتمع إلا باستكمال الفضائل التي تقابلها ؟

وسعة العلم لا تدل علي زكاة القلب وحسن الخلقُ ، فإن النفس الرديئة تستغل ما وُهِبَ لها من ذكاء ، وما أُتيح لها من اطلاع كي تحقق مآربها الصغيرة .

وقد رأينا علماء ذرَّة باعوا ما لديهم من أسرار للجواسيس الروس ، نظير ماذا ؟ نظير مال كثر أو قل سينُفق فى بعض الملَذات المنقضية ، والشهوات المحقورة !!

ورأينا علماء دين ينكرون ما يُوقنون بصدقه ، أو يعبرونه بسرعة ، إرضاءً لحاكم ، أو ارتقاباً لنفع .

وعلماء أهل الكتاب الذين عاصروا النبوَّة ، والذين جاءوا من بعدهم ضربوا أسوأ الأمثلة لهذا اللون من الجحود ، وهذا اللدد في عداوة الإسلام .

وقد وصف القرآن الكريم مَنْ تصرفهم الأهواء ، ويتدلون إلي الحضيض مع ما أوتوا من معرفة وذكاء ، فقال جل شأنه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ (١) .

إنه لما آثر الهبوط تركه القَدَرُ يهوى ، ولو أنه جاهد ورغب في التسامي لأخذ القدر بيده ، وأعانه علي الرفعة ...

نعم .. فالتربية معاناة وتعب ، وهي لا تتم إلا بعد مراحل طويلة ..

وعلاج النفس البشرية قد يكون أصعب من علاج الحجر الصلد أو الحديد ذى البأس الشديد ... ولكن ما منه بُدٌّ إذا شئنا الكمال ..!!

أما إذا رغبنا فى الحياة علي ما نستحلي ، فلن يكلفنا ذلك إلا أن نرتع كما ترتع البهائم ، والمصير أخيراً إلي الذبح ..!!

لكي تكون إنساناً له خُلُق كريم ، يستقيم مع منطق الفضيلة ، ويهرب من الدنايا ويأبي مقارفتها فماذا تصنع ؟ إن علماء الأخلاق يُعرِّفون الخُلُق بأنه عادة الإرادة ، وهذا التعريف يحتاج إلي شرح ، فالنفس الإنسانية قد تميل إلي أمرها ، وقد يقوي ميلها فتتحول إلي رغبة .

كلا الاتجاهين من ميل طاريء أو رغبة عارضة لا يُسمي خُلُقاً ! يجب أن تنمو الرغبة ، وتشتد ، وتصير إرادة جازمة .

فإذا بلغ الاتجاه النفسي هذا الحد من العزم ، فقد شارف ميدان الخُلُق ، ولما يبلغه بعد ! إنه لن يكون صاحب خُلُق معين حتي تستقر إرادته ، وترسخ عزيمته ، ثم تكون الإرادة الراسخة عادة يصدر عنها ، ويلتزمها التزام الغريزة التي وُلِدَ بها ويصعب التفصي عنها .

هذا هو الخُلُق ، وهذا معني تعريفهم له بأنه عادة الإرادة ، والتجانس بين

---

(١) الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦

كلمتي الخُلُق والعادة قائم في اللُغة ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ إنْ هَذَا إلاَّ خُلُقُ الأوَّلِينَ ﴾ (١) أي دأبهم وعادتهم ...

وهناك ناس كثيرون نفوسهم رجراجة ، تسودها ميوعة مطلقة ، يجرون نحو الخير ونحو الشر لأنهم لا ينبعثون من داخل أنفسهم ، بل يتحركون في الدنيا وفق التيارات التي تعلو بهم وتهبط ، وتتقدم بهم أو تتأخر ..

أمثال هؤلاء يظلون فى طفولة خُلُقية لا وزن لها حتي تُولد لهم شخصية محددة ويستقلون بقيادة أنفسهم ..

والذى يهمنا في مجال التربية تكوين الأخلاق الحميدة بكل ما تفرضه العادة علي ذويها من نظام ورتابة ، فان انعدام الأخلاق ، أو وجود بذرتها في حال بدائية رخوة لا يُغني شيئاً ، لأن الطباع السيئة في النفس تتحرك دون كابح قوى يصدها .

نعم .. نحن نريد تكوين الأخلاق ، لأن الخُلُق وحده هو الذى يهزم نوازع الضعف ووساوس الهوى ، وتأمل في قول أبي تمام يصف « البطل » الذى آثر الشهادة علي الحياة الدنيا :

وقد كان فوت الموت سهلاً فرده إليه الحفاظ المر والخلقُ الوعِر !!

ولهذا يقول شوقي :

وليس بقائم بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا .. !!

كنتُ يوماً في معمل الفيزياء ! وشاهدتُ المغناطيس وهو يمر فوق ذرات - بودرة من الحديد - ورأيتُ الذرات تنتظم سطوراً مطردة مدهشة ، إن عمل الإيمان في قُوَى البشر ومواهبهم هو عمل هذا المغناطيس .

أي أن الإيمان يمنع الفوضى والتشويش والتسيب ، ويُقيم نظاماً خُلُقياً دقيقاً يصوغ الفرد والجماعة في أوضاع محكمة ، إن المرء المحبوس داخل رغباته لا يعرف غيرها ، ولا يبالي بشرع ولا وضع ، هو وحش مُقَنَّع .

---

(١) الشعراء : ١٣٧

وقد وصف القرآن حياته الداخلية والخارجية - أعني النفسية والاجتماعية - بهذه الكلمات : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ (١) .

نعم .. لقد انفرط أمره كله ، كعقد انقطع خيطه ، وانتثرت حبّاته فما يدرى أين ضاعت ؟

والإسلام - وهو فطرة اللّه في الأنفس - يريد حماية الإنسانية من هذا التدني ، فماذا صنع ؟

إن أنواع الكمال كثيرة ، وقد علمنا أنها لا تنشأ ارتجالاً ، ولكنها تتكوّن علي مُكث ، ومع عوامل متراخية . فإذا كان اكتمال الإنسان يحتاج مثلاً إلي أخلاق النظافة والإخلاص والنظام ، وأنه لا يطهر جسداً وروحاً إلا بما يغرسها في كيانه ، فلتُربط هذه الأخلاق بالصلوات الخمس المكتوبة علي كل نفس ليلاً ونهاراً .

وجه يُغسل خمس عشرة مرة كل يوم ، لِمَ لا يكون وضيئاً ؟ إنسان يعرض قلبه علي ربه طرفي النهار وزُلفاً من اللّيل ، لِمَ لا يكون مخلصاً ؟ مجتمع تصطف فيه المناكب والأقدام ، وتطلب لهذا الصف مراراً في الساعة كذا والدقيقة كذا ، لِمَ لا يكون منظماً ..؟

والصبر والأمانة والرفق والتحمل والبشاشة أخلاق لا بد منها للبناء الإنساني السليم في الفرد والجماعة ، فلتُربط هذه الأخلاق - إلي جانب الصلاة - بالصوم وما يُوحي به من عفة وتماسك وانضباط ..

ولا نسترسل في سرد الفضائل واحدة واحدة ، ولا فيما يغرسها بأعماق النفس والمجتمع .

وإنما ننبه إلي شيء مهم بالغ الخطر ، هو أن تحول العبادات إلي رسوم ظاهرة ، وإلي صور من الغيبيات التي يؤديها الناس دون وعي ، قاتل لهذه العبادات ومبطل لآثارها..

---

(١) الكهف : ٢٨

وهذا التحول غير مستغرب عندما يهبط الوعي من منطقة حاشية الشعور إلي منطقة شبه الشعور .. فإن أغلب الناس عندئذ يقوم بالعمل وهو سارح الذهن أو شبه مُخدَّر ..!!

ونحن ندرى أن هناك من يُصلّي ولا تنهاه صلاته عن سوء القول والعمل ! ومن يصوم فلا يتعلم من صومه الاقتصاد في الضرورات والمرفهات ..

وآفة التدين من قديم الاكتراث بالشكل دون الموضوع .

إن قضية المُصلّي الذى لا يقرأ وراء إمامه حرفاً قد تخلق نزاعاً بين البعض !

فهل الحماس الذى يصحب هذا البعض يبقي علي شدته عندما يتعلق الأمر بالمُصلّى الذى لا يضبط لسانه ولا أعماله ؟

إنني أشمئز عندما أرى الخلاف الفقهي فى صور الطاعات يقطع ما أمر الله به أن يُوصَل ، مع أن نتائج هذا الخلاف مقبولة كلها ، خطؤها وصوابها .. ومن المقطوع به أن الكراهية والتنقص وعدم تجويد ما يُكلّف المرء به من أعمال ، رذائل مقبوحة في الدنيا والآخرة ..

لا ريب أن المسلمين بحاجة إلي تصحيح مفاهيم شتّي في أذهانهم وأحوالهم . وقد وفّر الإسلام ضمانات كثيرة لتكون التربية الدينية ناجعة في كل ميدان ، مؤتية ثمارها في كل وقت .

وأولى الضمانات التحكم فى البيئة إذ أن البيئة السيئة تهزم الإيمان والشرف فى الأغلب ، إن إنبات أجيال كريمة الشمائل ، نامية الفضائل يقتضى هيمنة ورقابة صارمتين على البيت والشارع والمدرسة ... بل نظام الدولة نفسه !!

ليس البيت ملتقى ذكر وأنثى لإشباع الغرائز الدُنيا ، إنه محضن حصين لتكوين الأولاد الشرفاء المؤدين لحقوق الله وحقوق الناس ، والذين تمتد بهم القِيمَ الرفيعة والسيَر الزاكية ، وقد علّم الله عباده المكرمين أن يستعطفوه ليحقق لهم هذه الغاية ، علّمهم أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ (١) .

---

(١) الفرقان : ٧٤

وهل يتعلم الأولاد الصدق ، والحياء ، والنُبل ، وإقام الصلاة ، وإعطاء الصدقة ، والبر بالجار ، وإكرام الضيف ، والاهتمام بالزى النظيف السابغ واحترام التقاليد والآداب العامة ..

هل يتعلمون ذلك إلا من مسالك والديهم ، والاقتباس منهم وهم فى أخص شئونهم ؟

إن تربية الأولاد تحتاج إلى علم خاص يُدرس للجماهير حيثما تجمعوا .

ورب البيت وربة البيت ليس واجبهما فقط توفير الغذاء والكساء للأولاد ، بل واجبهما الأهم إحسان التنشئة وغرس العادات الطيبة فى دماء أعقابهم . وفي الحديث : « إن اللّٰه سائل كل امرىءٍ عما استرعاه ، حفظ ذلك أم ضيّعه » ..

وكثيراً ما كنت أتساءل : متى يملأ النساء صفوف المسجد المؤخرة بدل هذا الفراغ الغريب ؟ متى يملأ الأولاد الصفوف الوسطى بدل التسكع فى الطرق أو الإغراق فى اللّعب ؟ متى تلتقى الأسرة فى بيت اللّٰه - الأُسرة كلها - التوجيهات الدائمة والموقوتة التى تربطها بالإسلام - وتصلها بشعائره ومقاصده ؟

والإسلام مع ذلك كله يحث المسلم أن يسعه بيته فلا يهجره إلى ناد أو ملهى .

نعم ... ينبغى أن يألف جو الأسرة كما يحث المسلمة على إحسان تبعل رجلها حتى يكون البيت عامراً بالود والبشاشة والسكينة ..

فإذا تجاوزنا البيت الى أى تجمع بشرى فى الشارع أو المدرسة أو الديوان أو النادى ، رأينا تعاليم الإسلام متكاتفة على جعل السلوك مضبوطاً داخل حدود ، ملتزماً بمعان بَيِّنة ... فلو جلس امرؤ فى الطريق لأمر ما فعليه أن يغض بصره ، ويحفظ لسانه ، ويأمر بالخير ، وينهى عن الشر ، ويعين الضعيف ويدعم المظلوم .

إن الأمة المرباة يتبعها أدبها كظلها فهى لا تنفك عنه فى قول أو فعل . والبون بعيد بين مجتمع عابث صاخب ومجتمع جاد وقور ، بين مجتمع متحاب

obeikandi.com

متراحم ومجتمع متحاسد حقود . وأخيراً : بين مجتمع مُكلَّف بإماطة الأذى عن الطريق فهو يمهده للسائرين دون قمامات ولا حفر ، ومجتمع لا يبالى بسكب الأقذار فى جوانبه ، وتضييق الخناق على السائرين فيه ...

والأساس انبعاث الأفراد عن مبادئ ثابتة تُوحى إليهم نبذ المنكر وإشاعة المعروف .

والشرع والعقل لا يتفاوتان فى تعريف ما هو المنكر ؟ ولا فى تبيين ما هو المعروف ؟

فإن الفِطَر السليمة تهتدى إلى ذلك تلقائياً ، أما الفِطَر المعوَّجة فهى تشوِّه أى دين ربما لا تُحسن فهمه ، وإذا فهمته لم تُحسن تطبيقه ...

وأرى أن التقاليد العامة يجب أن تُناقَش بين الحين والحين ليُعرف مدى توافقها أو تفاوتها مع أصول العقيدة والفضيلة ، فإن العُرف السائد قد يبدأ حسناً ثم تنحرف به تيارات مُحدَثة فلا يصل إلى غايته .

وكم من تقاليد لو أُعيد وزنها لرجع الناس عنها كَلاً أو جزءاً ، والمعيار الثابت كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ . أما آراء الرجال بعد فموضوع دراسة وموازنة ... وهذا يتأدى بنا الى حديث سريع عن المقاييس الخُلُقية ، إن علم الأخلاق قدَّم لنا آراء تفر من الفلاسفة الذين حاولوا من عند أنفسهم تحديد معنى الفضيلة ، هناك مقاييس اللَّذة وهناك مقاييس الواجب والكمال .

وفى عصرنا هذا أصبحت للمجتمع الاشتراكى تقاليد يُربَّى عليها الأجيال الجديدة ، وللمجتمع الحر أو الرأسمالى أخلاق أُخرى يشيعها فى أكناف بيئته ..

ومعنى هذا أن الدولة أمسى لها دور كبير فى مجال التربية ، وأنها تملك من وسائل المحو والإثبات ما يجعل تصرفها بعيد الأثر .

وهذا حق ، ما يمكن إغفاله ، وقديماً قال العرب : إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة : أى أن الأمير الذى يستهين بالكلمة ، ولا يُبالى بالتزوير تنطلق فعلته فى كل فج ما يقفها شئ ...

تُرى ما نتيجة ذلك إذا استقر الأمر للكذابين ؟ النتيجة أن يصبح الكذب عملة متداولة . !!

الدولة الملحدة تغرس الكفر وتُشرِّع التحلُّل وتُرغم الجنسين معاً على الانحدار فرجالها كما وصف القرآن المنافقين والمنافقات :

﴿ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١) .

قصَّ عليَّ صديق سورى أن نادى حزب البعث فى مدينة القنيطرة كان مرسوماً عليه شعار الحزب : « اشتراكية . حرية ، وحدة » وتحته مكتوب هذا البيت :

لا تسل عن ملتى أو مذهبى　　أنا بعثى ، اشتراكى ، عربى ..!

فلما احتل اليهود الجولان ، ودخلوا القنيطرة بدون قتال ، مسحوا هذا كله ، وكتبوا مكانه هذه الآية : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ !! (٢) .

ألا يشعر المسلم بغُصَّة وهو يسمع هذا النبأ ، إننى آثرت تسجيله فى بحث تربوى ليعلم أهل الأرض أن الذين انهزموا أمام اليهود ، لم يكونوا عرباً مسلمين ، ولم يكونوا على حظ تافه أو جليل من شمائل الإيمان أو أخلاق الرجولة .. !!

ثم إن أعمدة التربية فى الأمة كلها عندما تُجرى انتخابات لانتخاب حاكم ما ، فإذا النتيجة ٩٩,٩٩٩ فى المائة من الأصوات تأييداً وولاءً لهذا الحاكم ، والحقيقة التى يعرفها أهل الأرض والسماء أن ذلك كذب من الألف إلى الياء .

فى عصرنا هذا ... للحاكم دخل كبير فى تكوين الأخلاق الفردية والجماعية وفى رعاية الأمانات والعهود .

قديماً كانوا يقولون : السلطان من لا يعرف السلطان ، نعم ... كان هناك مَنْ

---

(١) التوبة : ٦٧　　(٢) البقرة : ٢٤٩

يستطيع العيش بعيداً عن أهل السلطة ، مستريحاً من رغبتهم ورهبتم وعطائهم وحرمانهم ...

أما اليوم ، فإن السلطة تفرض على كل امرىءٍ معرفتها طوعاً أو كرهاً ، إن دوائر العمل الحكومي هيمنت على الأقوات والثقافات معاً ، وهي تدخل بيتك لتُسمعك من برامج الإذاعة ما تشاء ، وترقب كسبك لتأخذ منك ما تشاء ، وتُقدِّر سنك لتجنيدك متى تشاء ، ولتأخذ ابنك إلى المدرسة عندما تشاء ...

إن العزلة عن الحكومات أضحت مستحيلة ، ومن ثَمَّ فإن آثار الحكومات في إضعاف الأخلاق وتقويتها لا يمكن تجاهلها ولا الإفلات منها .

وفى ظل النظام الشيوعى حَتْمٌ أن يُدرِّس الإلحاد للأولاد .

وفى ظل النظام العِلمانى حَتْمٌ أن يشب الأولاد ، في ظل تساوى الأضداد من إيمان وإلحاد وتبرج واحتشام .

وفى ظل بعض النظم تفشو المكاسب الحرام ، وتظل بأعناقها القناطير من الدنانير دون نكير . أو تنتشر الرشوة والغش فلا يكاد أحد يقضى أرباً له إلا بالولوغ فى الإثم ...

فكيف تنفصل النظرة الأخلاقية عن النظرة السياسية ؟ وكيف توضع مقاييس أخلاقية لا ارتباط لها بالواقع الذى يفرض نفسه ؟

تتجه التربية إلى النفس الإنسانية من ثلاث جهات هى جملة المظاهر الثلاثة للشعور كما أحصاها علم النفس ، فهناك ناحية المعرفة ، ثم ناحية الوجدان ، ثم ناحية الإرادة والسلوك ..

وقوام الناحية الأُولى تزويد الإنسان بثروة علمية نافعة تجعله خبيراً بالحياة مُدرِكاً لحقائقها دون خطأ أو مبالغة ، وفى عصرنا هذا انتظمت مراحل التعليم ، وتضمنت كل ما وصلت إليه الإنسانية من ارتقاء عقلى ، وخصائل محترمة .

ويحتاج الشخص العادى إلى بضعة عشر عاماً من الاستذكار والاستبصار حتى يكون على حظٍ مُرضٍ من الثقافة العامة ، ويحتاج إلى أمد آخر للتخصص

فيما يميل إليه من أنواع الدراسة .. ولن تنقطع حاجة الإنسان إلى التعلم ما دام حياً ، فإن الكون لم يُعطنا إلا القليل من أسراره ، والمسلم لا يشبع من معرفة ، وهو يزداد معرفة بالله كلما اتسعت مداركه .

وأنواع العلوم التى يتلقاها عن الكون والناس والحياة تجعله أضبط للحقائق ، وأقدر على الاستنتاج وأهدى للصواب .

ولا نعرف ديناً احتفى بالعلم وجعله لُباب التقوى كالإسلام ، إن المستوى الراقى للعقل الإنسانى مهاد جميل لما بعده من حس رقيق ، وانطباع شريف .

والحديث يطول عن آفات الجهل والقصور والفهم الجزئى لبعض القضايا الطبيعية والإنسانية والدينية .

على أن سعة العلم لا تستلزم طيبة القلب ولا صفاء الروح ، فكان لا بد من جهد آخر يصقل معدن الإنسان ، ويخفف كثافته ، ويرجح الجانب الروحى فيه .

وللحضارة الحديثة فى هذا الشأن نهج لا نقره كله ولا ننكره كله ، كما أن للمسلمين تقاليد لا نقرها كلها ولا نأباها كلها .

الغربيون يدللون الطبيعة البشرية ، ويلبون رغباتها ، ويرفضون الكبت والقيود الكثيرة التى توضع على ميول المرء ومنازعه .. أما نحن المسلمين فنتجه بعنف - أو هكذا كنا - إلى التكلف والتظاهر وإخفاء المطالب النفسية أو قتلها فى ظل أوضاع افتعلناها ليس لها أصل سماوى قائم ..

وكلتا الوجهتين لها وعليها ،،، فإن الكبت مطلوب إلى آخر الدهر بالنسبة إلى الحرام الذى يأباه الله جل شأنه ، فمن تَطلّع إلى حليلة غيره وجب عليه سحق رغبته حتى الموت .

وإذا تحركت له رغبة إلى جائز لا يملكه وجب عليه التصبر حتى يملك ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ (١) .

---

(١) النور : ٣٣

وعلى المجتمع ألا يُطل أمد العجز - والحالة هذه - كما أن عليه ألا يُنشئ أحوالاً خاصة أو عامة تُوهى أسوار الكبت المطلوب ، وتهزم إرادة التسامى ..

وليس لأحد أن يحرج الطبيعة البشرية بحظر مباح ، أو بمحاكمتها على أمور عفا الله عنها ، وترك الحديث فيها غير نَسيَان ولا ذَهول .

إن المصارحة أو المياسرة أفادت فى الغرب من جانب ولكنها أضرت مع الإسراف والتفريط ، وكذلك فعلت تقاليد الحذر والتكلف والرياء ، فقد أفادت من جانب وملأت الحياة عُقداً وعِللاً من جانب آخر ..

والحل الوحيد أن تُقدَّم نصوص السماء على كل عُرف أو تقليد ..

إن الإنسان خليط عجيب من أُصول متناقضة ، فهو من نفس الرحمن تَخلَّق ، وفي الحمأ المسنون احتَبس ، كما يصنع جهاز ساحر في قوته ودقته ، ثم تُحاط آلاته وأجزاؤه بمعوِّقات وأقذاء ، تُعَرْقِلُ الحركة ، وتُضْعِفُ القوة ، وتُذْهِبُ الرواء ..!!!

علي أن كل ما خالَطَ الجهاز الفذ من أكدار قد ترك للإرادة البشرية أن تذهب به وتمحو أثره ، وهي علي ذلك قديرة ، بل هي به مُكلَّفة .

وهذا سر الحياة منذ وجدت وهو معني قوله تعالي بعد قسم برسالات السماء :
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (١) .

أيُّ إنسان مُطالَب بالحفاظ علي هذا التقويم الأحسن ، مُطالَب بالتغلب علي الجواذب التي تشده إلي أسفل سافلين ، وليس يقدر علي ذلك إلا مؤمن ملتزم بالإحسان والإصلاح ما دام حياً ..

وفي رأيي أن كثيراً من المتدينين صدموا الفطرة البشرية عن جهل أو غُلُو ، كما أن الآخرين تحلَّلوا من قيود الأدب ، والتسامي ، وانساقوا مع الأهواء الجامحة حتي نسوا الله فأنساهم أنفسهم ..

---

(١) التين : ٤ - ٦

والتربية الصحيحة تُوجب مع سعة العقل والمعرفة ، سناء الروح وحنينه الدائم إلي أصله الأول ، وربه الكبير .

وأخيراً .. نذكر الإسلام في التربية البدنية ، فإن بعض الذين كتبوا أو تحدثوا عن الإسلام أساءوا تقرير هذا الحكم ، وفي شبابي الباكر انخدعتُ بكلام هؤلاء ، وفهمتُ أن الإنسان تكفيه في غذائه لُقيمات أو تمرات ، وأن المسلم يسهر عينه فما يألف الفراش ، ولا يسكن في اللَّيل .

وهذه صورة باطلة لموقف الإسلام من الجسد وحقوقه ، فما يكره الإسلام إلا الشره والتشبع والسَرَف ، كما يكره الإسلام الجزع في أزمات الحصار وطواريء الحروب ...

أما نظام التغذية الذي يضعه الأخصائيون للمحافظة علي الجسم وضمان تقويته وتنميته فإن الدين لا ينتقص منه درهماً ، والواقع أن ميل الناس الي السَرَف في الطعام والزهو بأطايبه شائع ، ولا يُلام الدين علي اعتراضه وإنكاره . !!

وكذلك قيام اللَّيل ، إن لبعض الناس طاقة كبيرة علي السهر ، وبديه أن يرفض الإسلام كل سهر يُضيِّع صلاة الفجر ، فإذا تاحت لبعض الناس في بعض المناطق قدرة علي السهر ، فلتكن اللَّيالي بيضاء لا حمراء ، بيضاء بالتهجد والقراءة لا حمراء بالإثم واللَّهو .

ومن الناس من يكدح سحابة نهاره ويفتقر إلي اللَّيل ليُريح بدنه ويجم أعصابه فمن يمنعه ذلك ؟ ما دام يؤدى فرائضه ؟ .

إن السهر الذى يُضعف الوعي ، ويُقلِّل الإنتاج ، ويُبعثِّر الواجبات جُرم . وليس تهجداً مقبولاً وكل نافلة تُضيِّع فريضة لا يقبلها اللّه ، ولا يقرها دينه ...

إنه لأمرٌ مُستَحَبٌ أن يكون المرء صاحب جسم جلد حمَّال لمشاق الحياة ، وعافية موصولة لا تخور في الطريق ، وتستسلم للإعياء والنقوص ...!!

وما يراه الأخصائيون والأطباء لترويح الجسد وصيانته يمكن وضعه صيفاً

وشتاءً في إطار من تعاليم الإسلام ، وهي تعاليم تُوصي بالاعتدال والاستعفاف وتكره المزالق والمساخر ..

إننا بعد هذه النظرات في تربية الفرد والمجتمع نضع أصابعنا علي الحقيقة المرة في حياتنا ، وهي أننا لم نوثق أواصرنا بالإسلام ، ولم نحسن لا فقهه ولا سلوكه ، وليس يُغني عنا اسم طنّان ، وجوف خَواء .

ثم إننا لما فقدنا الاندفاع الذاتي بقوانا الخاصة شرعت التيارات الوافدة تجرفنا هنا وهناك ، وتُلحقنا بها أذناباً لا رؤوساً ...

ولتنظر إلي هذه الأمثلة من فقدان الوعي في ميدان اللّغة ... كنتُ أسمع المذيعيين ينطقون كلمة « رباط » عاصمة المغرب بفتح الراء ، فأقول : الكلمة كجهاد وقتال بالكسر ، فما هذا الإصرار علي فتحها ؟ وأخيراً عرفتُ أن الكلمة يكَتبها الفَرنسيون « Rabat » بفتح الراء ، فتنازلنا نحن عن لغتنا ، وتبعناهم علي خطئهم !

وفي مصر بلد كبير اسمه « سيوط » ومنه الحافظ المعروف جلال الدين السيوطي ، فلما أغار نابليون علي مصر ، وقاوَمه أهلها استطاع بتفوقه العسكري أن يهزم الشعب والحكومة ، وفَرَّ الأمراء المماليك من وجهه الي « سيوط » ليستأنفوا المقاومة من هناك .. واستحث نابليون رجاله لمتابعة المماليك قائلاً لهم : إلي « سيوط » وحرف الجر المقابل « إلي » بالفرنسية « A » وصاح الجنود وراء قائدهم « أسيوط » والمدهش المذهل أن صيحة المغيرين أصبحت عَلَماً علي البلد المهزوم فَسمِّيت أسيوط !!! ونسي العرب اسم بلدهم الأصلي !!!

ويمتد هذا السخف إلى كتاب اسم « مكة » بالحروف اللاتينية ، فالميم تُكسر والتاء تطير ، والعرب من وراء الفرنجة يكتبون الكلمة « Macca » فما هذا الهزل ؟

هذه الأمثلة على طرافة موضوعها تومىء إلى الانحلال العام فى الشخصية العربية .

ولا نستطيع الزعم بأننا ملتزِمون لتراثنا ، ولا محافِظون على مقوِّماتنا فى

ميدان اللُّغة والتربية والتشريع والتقاليد العامة ؛ فماذا بقى على الموت الأدبى الذريع ؟

إن عودتنا إلى الإسلام هى عودة الروح إلى الكيان الهامد ، وذلك ما يجب أن ينعقد عليه العزم ، ونحن نَوِّدع قرناً ونستقبل قرناً أملاً باليُمن إن شاء الله .

* * *

● يوم الإسلام قادم :

نحن نعتقد أن المستقبل لنا لا علينا ، وأن حكمنا الذى انهار سيقوم مرة أخرى شامخاً عزيزاً ، وأن اليهود الذين يُعَربِدون فى منطقتنا ، ولهم على حكام العرب صَولة ستخمد نارهم وتذوب دولتهم ، وأن المد الصليبى والشيوعى والوثنى ستتبدَّد قواه ويعقبه جَزر عميق .

نعم .. فللإسلام جولة أخرى لا تقوم الساعة إلا وقد بلغت مداها ورفعت سناها .

وتالى القرآن الكريم المتدبر معانيه يلحظ ذلك فى مواضع كثيرة ..

اننى عندما أقرأ قول الله لعيسى ابن مريم : ﴿ ... وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) أشعر أن يومنا قادم حتما ، فإن هذا القول توجه الى عيسى بعد أن وجه إلى الناس هذه العبارة الواضحة : ﴿ ... وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

فكفر من كفر بعيسى ، وأسلم لله من أسلم .

وأول المسلمين المستجيبين لدعوة عيسى هم الحواريون الذين قالوا : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ .. ﴾(٣) .. ثم نجيء نحن بعدهم .

فالإيمان بالله الواحد ، وبأن عيسى رسوله ، هو وضعنا نحن المسلمين .

---

(١) آل عمران : ٥٥
(٢) آل عمران : ٥٠ - ٥١
(٣) آل عمران : ٥٢ - ٥٣

obeikandl.com

أما النصارى الذين جعلوا إلَهاً ، فليسوا له بأتباع .

والتثليث الذي اعتنقوه بعد تأليه جبريل روح القدس هو ضرب من الشرك مهما كابروا .

نحن وحدنا أتباع عيسى ، وأتباع النبي الخاتم الذي أنصفه ، وشرَّفه ، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

وسنظل إلى قيام الساعة فوق الذين كفروا ، وسيظل كتابنا المحفوظ هو وحده مصدر الحقائق الدينية التي يحاسب الناس علي التمسك بها أو التفريط فيها كما جاء في آية أخرى : ﴿ ... وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١).

والأيات كثيرة في أن اللّه مُظهر الإسلام على كل الأديان ، لكن الأمر خاضع لقوانين مُحكمة يجب أن يحترمها المسلمون قبل غيرهم .

إن الحق لا ينتصر إلا بأتباع أيقاظ ساهرين مضحين ، ولا ينتصر إلا بعد عراك مرير مع مباديء وملل أخرى انخدع بها أصحابها واستماتوا هم أيضاً في نُصرتها .

وقد مرت قرون أربعة عشر على ديننا حوَت من العبر ما يستحق الدرس ، وقد كتبنا مقالاً عن الخط البياني لمسيرة الإسلام نحب إيراده هنا .

الرسم البياني لمسيرة الإسلام في العالَم متموج مضطرب ، قد يسمو فيصل إلى القمة وقد يهبط حتى يمس القاع . وليس ذلك مستَغرباً عندما نلاحظ السُنَن الكونية التي تحكم دنيانا ، فإن هذه السُنَن تُقلّب الناس بين السرَّاء والضرَّاء : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (٢) .

ولا أريد الآن الحديث عما عرض للمسلمين في تاريخهم الممتد من نصر أو هزيمة ، وإنما أريد التوقف طويلاً لأتعرف على عوامل الصعود والهبوط في حياتنا العامة ، وسأكتفي هنا بملحظ واحد أريد تجليته ولفت الأنظار إليه .

---

(١) الروم : ٥٦ (٢) آل عمران : ١٤٠ .

إن اضطراب المستوى الثقافي والسياسي لأُمتنا لا يُسئل عنه جيل واحد ، فنحن المسلمين الذين يسؤنا ما يلقاه الإسلام اليوم من حظوظ سيئة وما نلقاه نحن من متاعب ثقيلة ، إنما نجني تفريط أُناس سبقونا ، ونحصد ما غرسوا ..!!!

وما نُبديه من مقاومة ، ونُكنُه من ثبات ، ومصابَرة ، ربما تراخت آثاره فلم يظفر بها إلا أولادنا أو أحفادنا ، كأنها رصيد مدخر لهم ، تكشف عنه الأيام في إبانه ..

وما نبغي بهذا الكلام دفاعاً عن أنفسنا ، ولا غمطاً لغيرنا ، وإنما نريد إبراز وحدة الكيان الاجتماعي للأمة وتماسك أحوالها وإن تغايرت القرون .

إن الحق الذي نعمل لاستقراره لا بد أن يستقر ، والباطل الذي نكدح لبواره لا بد أن يبور .. ولكن متى ؟ ليس ذلك إلينا ، ولا توقيته في مقدورنا .

إننا نحيا في ضوء إيمان قدمه لنا سَلَفٌ صالح ، فلماذا نستكثر أن تحيا الأخلاف المقبلة في ضوء ما نقدم من كفاح ؟ وأن يطوينا الليل لتنعم هي بتباشير الصباح ؟

لعل ذلك الذي نقرره هو سر الأمر الحاسم في قول الله لنبيه : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّه حَقٌّ ، فَإِمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

على المجاهدين المسلمين أن يعملوا ، ولذتهم ليست اقتطاف الثمر العاجل ، وإنما لذتهم في الشعور بتوفيق الله والأمل في رضاه ..

وندع هذه الخاطرة في قصة الثواب والعقاب إلى ما هو أهم في مسيرة الأمة الإسلامية نفسها ، إن حاضر المسلمين ومستقبلهم تقرره أنصبتهم من اليقين والخُلق والكفاءة على قيادة الحياة باسم الله ، نعم .. وفرة هذه الأنصبة هو الذي يرجح كفتنا ، ويدعم جانبنا ، ويسوق النصر سوقاً إلينا ، شئنا أم أبينا ..

---

(١) غافر : ٧٧

شئنا أم أبينا ؟ إن هذا تعبير غريب ، لكن غرابته تذهب عندما نقرأ قوله تعالى في مفتتح الحديث عن انتصار « بدر » : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ (١) .

إن القَدَر ساق التمكين سوقاً إلى القلة المؤمنة في صحراء الجزيرة لأنها أجدر به وأولى ..

إن من مصلحة الدنيا أن يقع هذا التحول ، وأن يُنتزع زمام التوجيه من أيدي الوثنيين ليُوضع في أيدي المؤمنين الذين ترشحوا له بمواهبهم ومكاسبهم المعنوية أكثر مما ترشحوا له بدعاواهم وأمانيهم العاجلة ..

ويظهر ذلك جلياً في فتح مكة . فإن المعاهدة التي التزمها المسلمون كانت تؤخر هذا الفتح عشر سنين ، ولكن الوثنية الحاكمة هى التي سعت إلى حتفها بظلفها ، فغدرت وعبثت واستقدمت المسلمين بعد سنتين ليتسلموا مقاليد الأمور في أم القرى ..

إن المسلمين في هذه الأيام الغابرة لم يكونوا مشغولين بالتطلع واستعجال السيادة ، بل كانوا مشغولين بتزكية أنفسهم وتنميتها بما يُرضي الله ، كانوا مشغولين بمضاعفة أنصبتهم من التقوى والأدب والأمل والعمل بما يجعلهم أئمة خير وبر ، فكانت العُقبى لهم ، وأقبلت الدنيا عليهم ، وما كانوا فيها يؤملون ، ولا لها يعملون .

ومضت السنَن الكونية في عملها العتيد الخالد فغربت الشمس عن « المدائن » و « القسطنطينية » لتشرق في « مكة » و « المدينة » . وانتقلت عواصم الحضارة إلى جزيرة العرب .

أتُرى ذلك تَمَّ عن محاباة أو مصادفة ؟ كلا ، إن المصلحة العُليا للإنسانية هى التي اقتضت ذلك ، إن التقاليد السياسية لعمر في المدينة المنوَّرة كانت أشرف

---

(١) الأنفال : ٥ - ٦

openkanal.com

ألف مرة مما عرف الفُرس والرومان ، كان المسلمون يومئذ فلاسفة في حقوق الإنسان كما كانوا فلاسفة في حقوق الرحمن ، أما خصومهم فكانوا قطعاناً من الأُميين تتخلف بهم الحياة ويسود وجهها ..

فلندرك - نحن المسلمين المعاصرين - هذه الحقائق ، إن التاريخ ليس سجل معارك حربية منتصرة أو منكسرة ، قدر ما هو سجل مستويات عقائد وأخلاق وقُدرة على تطويع الحياة للقِيمَ الرفيعة .. وآباؤنا الأوائل نماذج عملية لذلك كله ..

وطبيعي أن يحفل تُراث النبوةٌ بما يشرح الخط البياني لسير المسلمين وأن يُحَذِّر من الفتن الكثيرة التي تملأ الطريق .

والفتن في حياة الأفراد والجماعات شيء لا بد منه ، ومواجهتها باليقظة والرُشد حق على كل مؤمن ، وقد وقَرَ في بعض الأذهان أن الفتن حكر على الفصل الأخير من رواية الإنسانية ، وأن المسلمين سوف يواجِهون آخر الزمان جَزراً لا مَدَّ معه ، وأدواءً لا أدوية لها .

وهذا جهل كبير ، والواقع أن أحاديث الفتن لا يجوز أن يقرأها العامة ، ولا أرى أن يقرأها إلا أخصائيون في علل المجتمعات وأطوار الأمم وأسرار التاريخ ..

إن الحديث عن غُربة الإسلام ليس حديثاً عن مستقبل دين كما يتوهم البعض ، ولكنه حديث عن عَرَض يعرو الدين حيناً ثم يذهب بذهاب أسبابه .

وقد يعود مثنى وثلاث ويذهب كذلك لأن معنى الحديث الوارد هو أن الخط البياني لسير الإسلام لن يأخذ طريقه صعداً مع موجة الفتح الأول ، بل سيتراجع وينحرف وتغلب الفتن ، ثم يُنصر الإيمان وينجح رجاله مرة أُخرى في استعادة سيطرتهم وتفوقهم ويبدأ الإسلام صفحة جديدة ، لا تبقى جدتها طويلاً ، بل تناوشها الفتن تريد طيها ، ويبقى الصراع الأبدي بين الحق والباطل إلى قيام الساعة .

ونستطيع أن نؤكد أن البعث يجيء وللحق أنصار شداد وألوية مرفوعة وكتائب تحميه وتقرر هيبته وتستبقى كتابه العزيز ، إن هذا ما ينضح به قوله

obeikandl.com

تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ، فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [١] .

لقد مرت بالمسلمين قرون أربعة عشرة ، فيها قرون حية ، وأخرى هامدة ، فيها أيام مُزهِرة بالعلم وأخرى مُظلِمة بالجهل .

وامتددنا حتى أدبنا الجبابرة ، وانكمشنا حتى استنسر بأرضنا البُغاث .. ليكن ، فتلك طبيعة الحياة الدنيا ..

والدرس الذي لا يجوز أن يغيب عنا أننا ما فقدنا الصدارة قط ونحن أوفياء لربنا ونبينا . ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾[٢] ..

ومن قَدَرنا نحن مسلمي القرن الرابع عشر أن تسقط الخلافة الإسلامية في أوائل هذا القرن ، وما هذه أول مرة تسقط فيها الخلافة ، لقد ديست فى بغداد على أيدي الهمج في القرن السابع .. وسقوط الخلافة الإسلامية حدث شنيع ، ولكنه مهما قبح دون سقوط الثقافة الإسلامية .. !!

لقد بقى العلم الإسلامي يضع في العقول النور ويضع في القلوب اليقين .

وكافح العلماء حتى صنعوا أجيالاً أشرف وأزكى وعادت الخلافة مرة أُخرى ترفع عَلَم التوحيد في المشارق والمغارب ..

وخصوم الإسلام في هذا العصر مستميتون أن يُسقطوا معاقل الثقافة الإسلامية وأن يردموا منابعها أو يُلوِّثوها ما استطاعوا ، وذلك حتى لا تعود للإسلام وحدته الكبرى ودولته الجامعة ، ومن ثَمَّ فإن الجهاد العلمي الآن فريضة مُحكمة ، إن الثقافة الحارسة لتُراثنا كفاح أدبي هائل النتائج ، بل إنه الكفاح الذي يُوزن فيه مِداد العلماء بدماء الشهداء ..

أذكر أن الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين - طيَّب الله ثراه - قال لي : عندما أسقط الحلفاء الخلافة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، قررت جميع القُوى

---

(١) الروم : ٥٦ (٢) الأنعام : ١٣١

التي شاركت في ذلك أن تنتقل إلى القاهرة كي تضرب ضربتها الأخيرة بوصف القاهرة هى العاصمة الثقافية للعالَم الإسلامي ..

لكن موطن الأزهر قاومت ولا تزال . ونرجو أن تظل راية الثقافة الإسلامية مرتفعة في مصر ، وشتّى عواصم الإسلام .

وإنى إذ أقرر هذه المقاومة لا أُريد الترويج لخدعة كبيرة يُفهم منها أن التعليم الديني بخير ، وأن الثقافة الإسلامية في أمان .

العكس هو الصحيح ، والمسلمون يعانون أزمة ضروساً في الدعاة والمربين ، والفقهاء والمفتين .

والميدان الإسلامي من عشرين سنة يُنتقص كماً وكيفاً ، وهنا مكمن الخطر ..

لقد قلتُ : إن الهزائم العسكرية عَرَضٌ يزول ، أما الهزائم الثقافية فجُرح مميت ، والثقافة الصحيحة هى التي تبني الإنسان المسلم والمجتمع المسلم على قواعدهما الركينة من كتاب اللّه وسُنَّة رسوله ، وعبقرية البناء الصحيح المتين هى التي استبقت صَرح الإسلام إلي يوم الناس هذا ...

إنه أمام التمزيق المتعمَد للرُقعة الإسلامية الكبرى لا بد من ثقافة تؤكد وحدتنا العاطفية والفكرية ، وأمام المغالاة بالقشور والرسوم والمخاتلة بالصور الشائهة نريد ثقافة تُنشيء العقل المسلم والضمير المسلم والسلوك المسلم ، وأمام العجز الشائن في شئون الدنيا نُريد ثقافة تجعل عبادة اللّه سواء في المسجد والمصنع ...

لقد ضاقت نفسي بلفيف من الناس يَدَّعون الإسلام ولا جهد لهم إلا استفزاز الأقوياء وتلقي الضربات .. أما العمل الصامت الذكي لخدمة الإسلام وأُمته فقلّما يُحسنون .

وما كان ذلك دأب سَلَفنا الذين امتلأوا أمانات وكفايات من أخمص القدم إلى ذؤابه الرأس ، اقتحمتهم العيوم أول ما خرجوا من الصحراء ، فلما اشتبكوا مع أبناء الحضارات المُدْبرة في فارس والروم جثا التاريخ بين أيديهم يُسَجِل ويروى .

ومهما تكن الهزائم التي أصابتنا خلال هذا القرن فإن يوم الإسلام قادم لا ريب فيه .

إن الدنيا هَيِّنَةٌ على اللّه ، بَيْدَ أن اكتمال الصورة لامتحانها الطويل لا بد منه ، ومن معالِم العزة الإلٰهية أن يجعل اللّه فصولها الأخيرة نضرة للحق ، وهواناً للباطل في الصورة التي يشاؤها ، تبارك اسمه .

سنظل نقاتل الإلحاد الشيوعي ، والعدوان اليهودي ، والاستعمار الصليبي تحت عَلَم التوحيد وسيكون القتال قاسياً كثير الشهداء .

وفي ذروة هذه المعركة سينزل عيسى ابن مريم ليُكذِّب بنفسه الذين جعلوه إلَهاً مع اللّه ، ولن يقبل هدنة إلا إذا اندحر الباطل وسُوِّيت قلاعه بالرغام ...

على أن الميدان الأول للدعاة هو « نفوسنا وصفوفنا » .

إننا جهلة بديننا ومتعدون لحدود اللّه ، إن صفوفنا مزقتها الأهواء والفوضى ..

وتوجد أصوات جهيرة حيناً ، وخافتة حيناً ، تهيب بالأمة التائهة أن تستوي على الصراط .. إنها صدى الصوت الأول ، صوت النبوّة التي أخرجت العالَم من الظلمات إلى النور ، فهل نفتح لها مع مطالع القرن الجديد صفحة جديدة ؟

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) .

* * *

● **التعصب للحق :**

التعصب وصف رديء عندما يكون معناه جمود الفكر ، وانحصار الأفق ، والتشبث بالهوى ، والجنوح إلى الباطل مهما بدا عواره .

---

(١) آل عمران : ١٩٣ - ١٩٤

ونحن نرفض هذا الوصف ونأباه على أنفسنا وقومنا .

ولكن عندما يكون التعصب أثراً لاحترام الحق ، وإكبار أهله ، ودعم جانبهم ، وكُره عدوهم ، فإن التعصب هنا يرادف الإيمان والجهاد ، ولا يتخلى عنه امرؤ ذو دين !!

وفي العالَم اليوم :

- حقائق أرخصها الضعف .
- وحقوق هضمها البغي .
- وقوى شرسة استمرأت العدوان .
- ومسلمون طمع فيهم من لا يدفع عن نفسه ، حتى كان البُغاث بأرضنا يستنسر !

أفلا يوقظنا مرأى هذه الصور الكريهة إلى أن نعرف مَن نحن ؟ وماذا نحمل من رسالات الله ؟ وماذا نستطيع أن نُسديه لأنفسنا وللعالَم أجمع لو غالينا بديننا وتاريخنا ، وشققنا الطريق إلى المستقبل على سناه الهادي ؟؟

وعندما أقرأ سورة « الممتحنة » يحيا في نفسي معنى التعصب للحقيقة ، والدفاع عنها ، والوقوف إلى جانبها على رقة الحال ، وكآبة المنظر في الأهل والمال !!

إنه ليس من الشرف أن أجامل مَنْ يهين الحق ، وليس من صدق اليقين أن أمالِئه وأترضاه .

وقد نزلت سورة « الممتحنة » لتُلقِّن المؤمنين هذا الدرس حتى يبقى حياً في نفوسهم إلى يوم الدين ، فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَاءَكُم مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١) .

---

(١) الممتحنة : ١

عيب واضح أن أصادق عدو الله وعدوي ، وأن أبسط يدي ولساني له بالسلام ، وهو يزدري ما عندي ، ولا يتوانى !! ومن هنا عللت السورة النهي عن المصافاة ، فقالت بعد إثبات كفرهم : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (١) .

لماذا ؟ : ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ (١) .

ثم اطرد السياق القرآني يقول : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ (١) .

أي فلا تسلكوا هذا المسلك ، وتطووا قلوبكم على حب مَنْ طردكم وأهانكم !!

كيف تفعلون هذا ؟ ..

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ (١) .

والتعبير بـ « أنا » في هذا الموضع يفرض علينا أن نتوقف قليلاً لنتدبره فقوله جل شأنه : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ (١) .

فيه معنى التحذير من الرقيب الخبير .

وهذا المعنى صرحت به - كما أشرنا من قبل - سورة أخرى في مثل هذه القضية قال تعالى : ﴿ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٢) .

والغريب أن هذا التحذير يتكرر في الموضع نفسه ، مؤكداً علم الله بما نخفي وما نُعلن ، حتى لا نتورط في مسالمة عدو يبتغي إبادتنا ، أو الوقوف منه موقفاً بعيداً عن الصرامة والمفاصلة ، فقال جل شأنه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٣) .

---

(١) الممتحنة : ١ (٢) آل عمران : ٢٨ (٣) آل عمران : ٣٠

تحذير يتكرر مرتين بعبارة رهيبة هي : ﴿ ... يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ إنها هناك توضيح لقوله هنا : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ، وَمَن يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

هكذا بدأت سورة « الممتحنة » تُعَلِّمنا ضرورة التعصب للحق ، والتمسك بأهدابه ، وكراهية المعتدين عليه ، والنفور من مودّتهم .

وإذا كان هذا المعنى الحاسم قد تصدرها : فإنه قد تمشى في آياتها على صور متفاوتة ، ثم كان لها الختام المبين فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ (٢) .

إن الأحياء من الكفار قد قنطوا من عودة إخوانهم الذين ماتوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أن الموتى من الكفار قد يئسوا من الحصول على مكانة عند الله فى الدار الآخرة .

سواء أكان هذا المعنى أو ذاك فإن المؤمنين لا يليق أن يصادِقوا قوماً تلك حالتهم !!

ولنُلق على السورة من بدئها إلى ختامها نظرة جامعة نتعرف بها أسباب النزول كما ذكرها المفسرون والمؤرخون .

لقد استغرق نزول هذه السورة - على وجازتها - قريباً من عامين ، وصدرها نزل في السنة « الثامنة » عندما قررت الكتائب المؤمنة أن تُجهز على الوثنية المتحكمة في مكة ، وأن تُعيد إلى دائرة التوحيد هذا المعقل الأشم .

ووسط السورة نزل في السنة « السادسة » بعد ما تم « عهد الحديبية » بين المسلمين وأهل مكة ، وبدأ التنفيذ وظهرت بعض المشكلات .

---

(١) الممتحنة : ١ (٢) الممتحنة : ١٣

وآخر السورة نزل بعد الفتح الكبير ، وإقبال أهل مكة رجالاً ونساءً على مبايعة الرسول ﷺ والالتزام بتعاليم الإسلام .

ومع الاختلاف الزمني الملحوظ في نزول الآيات فإن ترتيبها لم يفقد ذرةً من الاتساق والتماسك . بل هو نسق من الإعجاز الساري في أسلوب القرآن الكريم كله .

وأشعر بأن القرآن في علم الله القديم كان على هذا الترتيب الذي نحفظه ، وأن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث ، ثم يؤمر الرسول بوضعها في مكانها بتوقيف إلهي ، فتعود إلى وضعها الأزلي على النحو الذي يُقرأ الآن (١) .

والمحور الذي دارت عليه السورة كلها ، هو الحب والبغض في الله ، وهو قاسم مشترك بين أجزاء السورة منذ بدأ النزول ، ولذلك فإن وحدة الموضوع ظاهرة شائعة فيها ، ففي أوائل السورة نقرأ كيف رفض القرآن الكريم ما وقع من « حاطب بن أبي بلتعة » الذي راسل أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للسير نحوهم ، كي يأخذوا أهبتهم !! وهو عمل شنيع ، ولولا أن رسول الله ﷺ عفا عن الرجل تقديراً لسابقته في خدمة الإسلام لكان جزاؤه القتل .

وهنا نرى الوحي - بعد استنكار التصرف السابق - يقول للمؤمنين : ﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ ، يَوْمَ القِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢) .

أي لا يجوز أن يُخفِّف شيء ما من حدة الخصام للكفر وشيعته ، ولو كان الحرص على القرابة والولد والمال فإن جانب الله أولى بالرعاية .

والمثل الأعلى أن يقول المؤمنون لأعدائهم : ﴿ إِنَّا بُرَءَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (٣) .

---

(١) هذا ما يدين به جماهير المسلمين من السَلَف والخلف .

(٢) الممتحنة : ٣ (٣) الممتحنة : ٤

وهذه مصارحة بالقطيعة في سبيل الله ، ومعالجته بالحب لله والبُغض لله . وليس أمام المؤمنين إلا هذا السلوك .

وقد كان إبراهيم والمؤمنون معه على هذا الغرار ، وإذا كان إبراهيم قد لاين أباه يوماً وقال له : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [1] .

فذلك اللين ليس مهادنة للضلال ، ولا ضعفاً في الإحساس بحق الله .. كلا:

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [2] .

وهكذا انقطعت أغلى الصلات إيثاراً لحق الله .

إن حق الله على عبده لا يرجحه شيء في الأولين ولا في الآخرين . والاستهانة به ضلال مبين .

هل هذا التهجم الشديد ضد الضلال والضالين يرجع إلى غلظة طبع أو شراسة خُلق ! لا .. لا ..

إننا في شوق إلى سيادة السلام ، وامتداد عواطف الحب إلى كل قلب ، والأمر بيننا وبين خصومنا واضح مستقيم ، ومن حاسننا حاسناه ، وكنا أسرع إليه بالود والرحمة .

ولكن كيف نلين مع من استباح كرامتنا ، ونشد إساءتنا ، وإهانتنا ، وأخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ إن مصادقة من يفعل ذلك بنا نذالة وخسة يهبط إليها مؤمن !! قال تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا

---

(١) الممتحنة : ٤ (٢) التوبة : ١١٤

يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

والظلم هنا : الهوان ، قبول الدنيّة ، والاستكانة إلى الضيم ، والرضا بحياة الفسوق والمروق ، والعيش في كنف الفاسقين المارقين .

هذا صدر السورة الذي استغرق نصفها ، ونزل في السنة « الثامنة » .

أما وسطها الذي نزل من قبل ، فهو يعود بنا إلى نص في معاهدة الحديبية يقضي بأن يرد المسلمون عن المدينة مَنْ لحق بهم مؤمناً من أهل مكة ، وإن كان أهل مكة يقبلون من لحق بهم مرتداً .. !!

ومع أن الأيام أثبتت جدوى هذا النص على المؤمنين ، إلا أن القرآن الكريم استثنى النساء ابتداءً من تطبيقه وأمر المؤمنين أن يمتحنوا المؤمنات الفارات بدينهن فإذا علموا منهن صدق الاعتقاد وشرف الغاية قبلوهن في المجتمع الاسلامي فوراً .

إن هؤلاء النسوة المهاجرات التاركات لأزواج كافرين يجب أن نُرحب بهن وأن نُقدم تحية إكبار للعاطفة التي خرجت بهن إلى دار الإيمان . لقد كرهن رجالهن وفارقنهم لله فلا ينبغي أن يعدن لهم ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (٢) .

وإتماماً لإقامة المجتمع على احترام الدين ، وإعزاز مشاعر الحب والبُغض لله صدر الأمر بتسريح الزوجات الكافرات : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ (٣) .

إن قبول هؤلاء النساء المؤمنات ومفارقة الكافرات تشريع متكامل وحكمته واضحة وقد نُفذت معاهدة الحديبية بالنسبة إلى الرجال الذين ما لبثوا أن نظموا

---

(١) الممتحنة : ٨ - ٩ (٢) الممتحنة : ١٠ (٣) الممتحنة : ١٠

obeikandi.com

حرب العصابات ضد أهل مكة حتى اضطروهم إلى أن يطلبوا من الرسول ﷺ قبولهم في المدينة !!

ونصل إلى آخر السورة لنقرأ بيعة النساء ، كان ذلك بعد فتح مكة واستسلام أهلها لكتائب الرحمن .

إن أولئك الناس طالما آذوا الله ورسوله . وها هى ذي هند المرأة التي أكلت كبد حمزة قد أعلنت دخولها في الإسلام ، فماذا نصنع معها ؟!

لا شيء !! ننسى الماضي ، ونغفر الأخطاء ونُعَلِّمها وصاحباتها كيف يتأدبن بآداب الإسلام ، ثم يصبحن بعد أخواتنا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

نعم .. إن الله غفور رحيم ، فلننس الماضي ولنتحاب في الله .

لقد كان القرآن في هذه السورة يرقب متاب هؤلاء وعودتهم إلى الصواب وإقلاعهم عن إيلام المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ، وَاللَّهُ قَدِيرٌ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

والمودّة المرتقبة إنما تقع من أناس يخف ضغط التعصب على قلوبهم ورؤوسهم ، ويجوز أن تنقشع غيوم الغفلة عن آفاقهم وضمائرهم .

فإن المرء قد يُخطيء لملابسات معينة أحاطت به ، وربما ظل على خطئه لأن هذه الملابسات بقيت في مكانها ، لم تجد من يزيلها أو ينتقصها .

لكن ما الموقف إذا تشبث الإنسان بالزلل وهو يُدعي إلى الاستقامة ؟

---

(١) الممتحنة : ١٢ (٢) الممتحنة : ٧

أو أصر على الخطأ وهو يرى وجه الحق وضيئاً مشرقاً ؟

إن هذا الإنسان أجدر خلق الله بالمقت وأولاهم بالعقاب الآجل والعاجل .. وإنك لترى الوحي الإلهي طافحاً بالوعيد وهو يتناول أولئك الجاحدين من صرعى التعصب الأعمى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (١) .

ولنلفت النظر إلى أن الغفلة هنا ليست قصور عقل عن المعرفة الغائبة ، ولكنها بلادة قلب عن استيعاب المعرفة المبذولة ، والنُصح القريب !

وهذا هو التعصب الذي يأباه على نفسه كل عاقل أو منصف .

والقرآن في آيات كثيرة يلمح إلى هذا المعنى وإن لم يذكر التعصب بلفظه ، فإذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

فإن المقصود أناس طال نُصحهم وطالت لجاجتهم ، طال تعليمهم وطال صدودهم ... وليس المقصود وصف أقوام تُعرض عليهم الدعوة لأول مرة .

وبديهي أن ينتهي هذا الصدود بما ينتهي به كل جحد وتبجح ، من استمراء للشر واستهانة بالخير واستحلاء للقبيح .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾ (٣) .

وقد صحب التعصب من قديم حيف شديد على أهل الإيمان ، وتطاول على حقوقهم المادية والأدبية ، وتصوير كذوب لأقوالهم ، وأعمالهم ، وإلحاق للمعايب

---

(١) الأعراف : ١٤٦ (٢) البقرة : ٦ (٣) النمل : ٤ – ٥

والمقابح بسيرتهم وتاريخهم وكان نصيب الأمة الإسلامية كبيراً من هذا التعصب الجائر الآثم .

ولستُ أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم ، فإن الذئب المفترس لا يُستكثَر عليه أن يعقر ويغتال .

إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنياب الجائعة ، والطوايا الكنود ، ومع ذلك فهم غارون مسترسلون في « طيبتهم » وتهاونهم ... فإلى متى ؟

إن أرضنا انتقصت من أطرافها شرقاً وغرباً وفق خطة رسمت بأناة وروية ... ثم بدأت الإغارة على قلب العالَم الإسلامي استكمالاً للإجهاز عليه طولاً وعرضاً ، فهلاّ عرفنا ما يُراد بنا ؟

إن في العالَم الآن طوفاناً نجساً من التعصب ضد الإسلام وأمته ، وأمامي وأنا أكتب هذه السطور أنباء الدماء المُراقة والأشلاء المُمزَقة للمسلمين المستضعَفين في الفيلبين ، وما قصة الإسلام الذبيح في الفيلبين إلا نموذج مكرر لأقطار أخرى من الأرض أهين فيها الدين واستُبيح حِماه ، وشُرِّد أهلوه ، وأكلت حقوقهم !!

بل إن المسلمين - حيث يكونون كثرة في بلاد أخرى - تجرأ عليهم كلّ ذي ملة ، وتطلع إلى ما لم يكن يحلم به في يوم من الأيام !!

ألا نتِعلم التعصب للشرف والعِرض والأرض في هذه الظروف العصيبة ؟

لعلنا ... لعلنا .

فإذا تحقق ما نصبو إليه فللّه الحمد ..

نحن ما نسعى إلى قتال ولا نشتاق إلى سفك دم .

لكن إذا فَرِض علينا القتال فإن الذرّة من التهاون في كراهية المعتدين جريمة تُوجب أن ندخلَ المعركة بكل ما لدينا من غضب وقسوة وصرامة .

* * *

محتويات الكتاب

	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الأول : ولادة الدعوة	٥
الفصل الثانى : شبهة مردودة	١١
الأوضاع الداخلية على عهد الخلافة الراشدة	٢١
الفصل الثالث : الدعوة في ظل الدولة الأموية	٢٤
الدعوة وأحوال الدولة الداخلية	٢٦
الفصل الرابع : العباسيون والدعوة الإسلامية	٢٨
أحوال الدعوة فى العهد العباسى الأخير	٣٩
أمور لا بد منها	٤١
الفصل الخامس : مولد الخلافة التركية	٤٤
الأتراك والعرب والدعوة الإسلامية	٤٨
الدعوة الإسلامية فى العهد التركى الأخير	٥١
الفصل السادس : أسباب انهيار الحضارة الإسلامية	٥٨
التصوير الجزئى للإسلام	٦١
الثقافة الإسلامية - فى طورها القائم - تحمل مخلفات القرون الماضية	٦٤
موقف المسلمين من الدنيا	٦٧
الجبرية في العالَم الإسلامى	٧٢
المسلمون وقانون السببية	٧٣

الصفحة

تقاليد الرباء فى المجتمعات الإسلامية ٧٥
وضع المرأة فى عصور الضعف ٧٧
ذبول الأدب العربى ٨٠
سياسة المال فى المجتمع ٨١
الفساد السياسى ٨٣
الفصل السابع : أبعاد الهزيمة الإسلامية ٨٦
نظرة إلى الحملة الصليبية الأخيرة ٨٨
المسيحية تكتسح القارة الإفريقية ٩١
غارة شعواء ٩٥
أعماق الحقد الصليبى ، وآثاره فى الصحافة الغربية ٩٨
الفصل الثامن : كيف تصدى الدعاة لهذه الغارة ١٠٦
تركة موجعة ١١١
الفصل التاسع : ولاؤنا لمن ؟ ١١٦
إماتة الشرائع والشعائر بعد تمزيق الأمة كلها ١٢٢
الفصل العاشر : الأبعاد الجديدة : بعد ما صعدوا هبطنا ١٣٣
١ - الواقعية المادية ١٣٧
٢ - الحضارة العلمية ١٣٩
٣ - المذاهب الاقتصادية ١٤٠
المذهب الرأسمالى ١٤٠
المذهب الشيوعى ١٤١

الصفحة

دعاوة فتانون ١٤٣

الفصل الحادى عشر : عالمية الرسالة بين النظرية والتطبيق .. . ١٥٠

لأجهزة الإعلام رسالة ١٦١

كم مخاً غسلوه .. أو بتعبير صحيح : لوّثوه ١٧١

الفصل الثانى عشر : تربية الفرد والمجتمع ١٧٧

يوم الإسلام قادم ١٩٣

التعصب للحق ٢٠٠

محتويات الكتاب ٢١٠

* * *

رقم الايداع بدار الكتب المصرية : ٩١٣٧ / ١٩٨٩

الترقيم الدولى : ٨ - ٢.٤ - ٣.٨ - ٩٧٧

طبع بالمطبعة الفنية ت : ٣٩١١٨٦٢

obeikandi.com